دولة القانون فى الإسلام

الدولة القانونية ، هى الدولة التى يخضع فيها الحكام للقانون ، خضوع المحكومين له . وهى أمل من آمال البشرية : يبدو دانيًا حينًا ، ثم يبعد ويمعن فى البعد حتى ليخيل إلى أبناء البشرية أنه كاد يكون سرابًا ، أو ندًّا للعنقاء والخل الوفى !

وقد زاد من بعده أن اشتدت أوار الحروب الساخنة فى العهود الأخيرة منذ وقعت الثورة الفرنسية ، ثم جاءت فى أعقابها حروب نابليون الدولية ، فحرب سنة ١٩١٤ العالمية ، فمحنة سنة ١٩٣٩ البشرية ، فلما وضعت هذه الأخيرة أوزارها ، أعقبتها الحروب الباردة ، التى تسخن بدورها ، وتبرد ، حسب تقلبات السياسة ، ومخاوف الزعماء الحقيقية أو المدعى بها .

وقد منحت كل هذه الحروب الحكام ذرائع تبيح خرق القانون ، وتعطيله وتأجيله ، ومداراته ، وتخديره وتنويمه ، وإرهابه وإخضاعه ، مع تراشق المعسكرات بتهم يدور أكثرها حول إذلال كل معسكر للقانون وتمويهه أو تشويهه . على أن الذى يؤكد — مع الأسف الممض — أن أزمة القانون حقيقة واقعة ، وليست وهمًا أو خيالا ، أن فقهاء الغرب المدل بحبه للقانون وإعلاء كلمته ، والخضوع لسيادته ، اعترفوا فى غير مداراة ، بأن دولة القانون فى بلادهم دالت ، ولعل من أصرح هؤلاء « دى لانكفورت » فى كتابه « القياصرة الجدد » ، وقد أنذرنا بدولة قياصرة تقوم فى الغرب من طراز قياصرة روما ، لهم سلطان كسلطان هؤلاء القياصرة القدامى ، كما أنذر ، بأننا صائرون إلى هذا المصير ، بغير وعى منا ، كأننا السائرون نيامًا ، فنسلم حرياتنا إلى يد مستبد ، فراراً من حريتنا .

وقال الكاتب إن هؤلاء القياصرة فى غير حاجة إلى إحداث انقلاب على الدستور ، أو ثورة ضده إذ حسبهم أن يتسللوا إلى مواطن القوة من دروب فى الدستور نفسه . .

* * *

لذلك كله أصبح الحديث عن دولة القانون التى يسرى فيها الشرع العام ، على الحاكم مثل سريانه على الرعية ، من أحب الأحاديث إلى قلوب الناس ، التماساً للأمل ، أو تعزية عن الواقع .

وقد عرف الناس هذه الدولة ، كاملة المعالم ، واضحة الملامح ، صريحة لا تتوارى ، جلية لا يخطئها البصر ، مهما قصر ، حينما عرفوا الإسلام . قال نبى المسلمين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : « قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، فقال أصحابه ولا أنت يا رسول الله : قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضال » ! ومعنى ذلك أن الرسول نفسه فى حاجة إلى رحمة الله وفضله ، ولينل عفوه ، وينجو من عقابه .

فالقانون الذى يحكم الناس جميعاً ، وفى مقدمتهم رسول الله رب العالمين ، هو ما جاءت به الآية الكريمة : (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزَ به) ، ولم يهمل الرسول عليه أفضل الصلاة فى أن يعلن هذا المبدأ ، بأكثر من أسلوب ، وبأكثر من عبارة ، وفى أكثر من مناسبة ، قال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ويا بنى عبد مناف لاأغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مال ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

* * *

ولكن ما أيسر ما يقول الناس ، وما أكثر ما يقولونه ضد ما تُطوَى عليه الصدور ، وما تعلنه الأعمال ، فانظر ماذا جرى من محمد ، فى

أكثر الأمور مسًّا بقلب الإنسان وإثارة لوجدانه .

أسر المسلمون فى غزوة بدر : أبا العاص بن الربيع : وكان من رجال مكة المعدودين أمانة ومالا وتجارة ، وكان فوق ذلك زوج بنت رسول الله ، من السيدة خديجة ، ولكن أبا العاص استمسك بدين قريش ، ولم يدخل الإسلام ، وبقيت معه زينب بنت الرسول فى مكة ، وأرسل أهل مكة يفتدون أسراهم ، فبعثت زينب مالا لفك أسر زوجها . وبعثت معه قلادة كانت أمها قد أهدتها إليها ، عندما زفت إلى زوجها ، فلما رأى الرسول قلادة ابنته المهداة إليها من زوجته ، رق لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ، فقالوا : نعم يا رسول الله ، وأطلقوه وردوا عليها مالها .

وقبل أن يطلق سراح أبى العاص أخذ النبى عليه عهداً أن يرد « زينب » إليه لتلحق بالمسلمين بالمدينة ، وأوفى أبو العاص بالوعد ، حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج أبو العاص بتجارة إلى الشام ، فيها بعض ماله ، ومال لرجال من قريش ، فتصدت للقافلة سرية من المسلمين ، فاستولت على مال القافلة وبضاعتها ، وفر أبو العاص ناجيًا بنفسه . فإذا كان الليل دخل على السيدة زينب بنت الرسول فاستجار بها فأجارته . . فلما خرج رسول الله إلى الصبح ، كبر وكبر الناس ، صرخت زينب من صفة النساء : « أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! » فلما سلم الرسول من الصلاة أقبل على الناس يقول : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . إنه يجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف فدخل إلى ابنته فقال : أى بنية ! أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، أى لا يتصل بك اتصال الزوج — فإنك لا تحلين له . ثم أرسل رسول الله ، إلى السرية التى أصابت مال أبى العاص فقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم : وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو

فيء الله أفاءه الله عليكم ، فأنتم أحق به » قالو : « يا رسول الله ، بل نرده » : فردوه . وأطلق سراح أبى العاص ، فعاد إلى مكة ، فوزع على أصحاب المال مالهم ، ثم أعلن إسلامه قائلا إنه لم يرد أن يعلن إسلامه ، قبل أن يرد الأمانات إلى ذويها ، حتى لا يظن أهل مكة ، أنه اتخذ من الإسلام ذريعة لأكل أموالهم .

فانظر كيف كان مسلك الرسول فى الواقعتين ، دع عنك الرفق الذى اصطنعه ، والتواضع الذى أقسم به ، ودع عنك هذه الكلمة التى ندت من صدره ، وهو ينهى صلاته فى الصبح ، معلنًا أنه لم يعرف من قبل ، أن ابنته أجارت زوجها ، ليعلم الناس أنه لا يتواطأ حتى مع أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى نفسه ، وأحقهم بالرعاية الخاصة ، على القانون ، فيعطى نفسه أكثر مما يعطى قانون الناس كافة .

إنما الغاية من ذكر هاتين الواقعتين ، أن الرسول سلم بحق السرية ورجالها فى الاستيلاء على مال القافلة ، وأنها إن أرادت مصادرتها ، فلا تثريب عليها ولا لوم . ولا يتوهم متوهم أن الرسول كان يعلم يقينًا أن المسلمين سيستجيبون لرجائه ، وسيفكون له أسر زوج ابنته . فقد رباهم على غير ذلك ، وعلمهم كيف يجهرون بالرأى ويشتدون فيه ، حتى قال أحدهم فى غلظة لا مبرر لها : « أهذا المال مال أبيك ؟ » ، فإذا هم عمر بضرب عنق الرجل نهاه الرسول ، وقال قولة يحيطها الخلود بإطار من عنده : دعه يا عمر ، إن لصاحب الحق مقالا .

ويروى لنا التاريخ أن أنصاريًا كان له بستان ، وكان لآخر نخيل فيه ، فعرض عليه أن يبيعه النخيل فأبى ، فعرض عليه أن يبدله به نخيلا فى موضع آخر فأبى ، فرفع صاحب البستان شكواه إلى الرسول ، الذى أعاد عرض الأمرين على صاحب النخيل ، فأبى كذلك ، فاقترح الرسول أن يهب نخيله لصاحب البستان فركب رأسه ورفض ، وعندها فقط ، قال لصاحب البستان : أنت مضار فاخلع النخل .